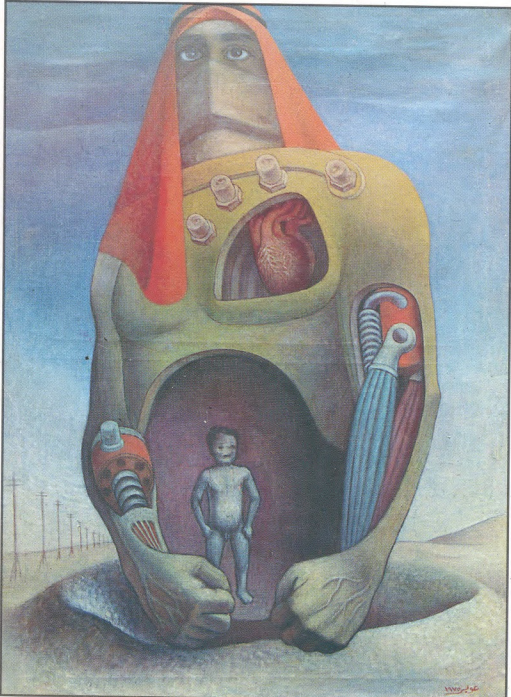




مطبوعات
الهيئة العامة لقصور الثقافة

حضان الجبل



اللوحة لفنان الشهر حامد عويس

د. نعيم عطية



الهيئة العامة لقصور الثقافة

حضان الجبل

د. نعيم عطية

مطبوعات

الهيئة العامة لقصور الثقافة

• حصن الجبل

• رواية

• د. نعيم عطية

• الطبعة الأولى

• مطبوعات الهيئة (٣٣)

• القاهرة ١٩٩٩

• رقم الإيداع، ١٠٥٩٦/٩٩

شركة الأمل للطباعة والنشر

ت، ٣٩٠٤٠٩٦

سلسلة
مطبوعات الهيئة

رئيس مجلس الإدارة
ورئيس التحرير
د. مصطفى الرزاز

المشرف العام
سمير ندا

أمين عام النشر
محمد كشيك

الإشراف الفني
د. محمود عبد العاطي

مدير التحرير
محمد أبوالمجد

• المراسلات :
باسم مدير التحرير على العنوان التالي :
١١٦ شارع أمين سامي - القصر العيني
القاهرة - رقم بريد ١١٥٦١

إهداء

إلى الصديق العزيز، الناقد الكبير،
الأستاذ الدكتور شكرى عياد، مع عميق
الود والتقدير.

ن-ع

مجرد إحساس

رسموا لى صوراً عديدة، وأقاموا لى نصباً فى كل ميدان وعند كل ناصية، وأحياناً ثبتونى على الأسوار قائلين أننى أُرهب الأعداء. وقد دهشت أن البعض منهم خافوا وولوا الأدبار هارين. أكنت حقاً أخيف؟

صنعوا منى نماذج كثيرة، بعضها بالغ الحسن والملاحة، حتى كدت أنا نفسى لا أعرف نفسى. هل إلى هذا الحد كنت فاتناً، وإلى هذا الحد لاتشوب وسامتى شائبة؟ على أننى سريعاً ما اقتنعت بذلك، وليس فى هذا أدنى غضاضة. فالأعتبر إذن أننى كنت حقاً وسيماً فاتناً، وأن بطنى المترهل، وجلدى، وتلك البثور والثآليل المتناثرة على أجزاء مختلفة من جسمى، لم يكن كل ذلك بقادر أن يخفى عنهم ما لم أكن أراه أنا نفسى، فليكن. كثيرون يُخدعون فى أنفسهم، ويظنون بأنفسهم الدمام، وهم متلى على غاية من الاغراء والوسامة. نسبوا إلى أوصافاً كثيرة، وألبسونى ثياباً أرجوانية فضفاضة،

وأجلسونى على العرش فى احتفالات صاحبة. أما أكاليل الغار فقد
تتابعت على هامتى فى كل حين ومناسبة.

نعتونى ذات مرة بالإحسان والسماحة، وهذا ما لم يكن بامكانى
أن أصدقه، إلا بعد لى ومعاونة ولجاجة. وعندما رأيت يدى النحيلة
تمتد فى نقش على حجر لتربت فى الهواء على رأس لم يكن له وجود
أمامى، قلت لنفسى.. لعلهم يذكرون تلك المرة التى أُكْرِهْتُ فيها على
فعل، لم أكن آلفه، ولا أحبه كثيراً.

ألبسونى قناع ثور تارة، وتارة أخرى فروة أسد، وزعموا أن
الأسود والثيران فيها من صفاتى الفحولة والشجاعة، ولهذا فهم
يعتززون بلبس قرونها وجلودها تبركاً بى وتيمناً، لعلى أحلّ فيهم، كما
حللتُ بالثور والاسد، وأن كنت أصدقكم القول أفكر فى التمساح
كلما تحدثوا عنى، وفى الأفعى ذات الصليل. كما أرثى لذلك الذى
ألصق بكتفيه جناحى نسر، وأعتقد المسكين أنه يستطيع أن يعلو
كثيراً كثيراً مثلى، فلما طلعت الشمس، وسلّطت عليه أشعتها الدافئة
ذاب الصمغ فتربدى الى الهاوية، وهو جزاء من يتناول علينا،
ويتجاوز الحدود عامداً.

وعلى أى حال، لم يكن شكلى فى هيئة ثور أو أسد بالشئ المنفر.
وانما الذى قرزنى من نفسى هو ذلك التمثال الذى نحتوه لى،

تارة من نحاس وتارة من خشب، وألسنة اللهب تبظ من عيني وتبخ
من أنفي وأذني. وكأنه لم يكن يكفيني لأردي بنيرانى الاعداء صرعى،
فأمسكونى بالاضافة إلى ألسنة اللهب المنبعث حولى - أمسكونى
سيفاً ثقيلاً صدئاً، وزعموا أنه بتار لا يقاوم.

وما كان أشد رعبى من اصرارهم علي مناداتى بالغازى،
والمكتسح، والذي لا يقاوم، والعدوانى، والمحارب القوى ذى التصميم
علي النصر، تاركاً وراءه النار والدمار.

على أن آخرين رسموا لى صوراً ضحكتُ لها كثيراً، بعد أن
طردت عن قلبي أمواج الدهشة والحيرة - رسموني راقصاً، ولى من
الانزع المتماوجة ما يزيد علي ثمانية، وأيضاً من السيقان التى
تضرب الأرض وتقفز عالياً ما يزيد على هذا العدد، ولكن فى كل
الأحوال العدد زوجى. وقد جعلوا أصابع يدي فى أوضاع تومىء
ايماءات لها دلالات يقولون أنها رمزية.. أما نظرات عيني، وإن كانت
ما عادت ترهب، فحدث عنها ولا حرج.

وامتلأتُ خيلاء عندما نسبوا الي مغامرات حب ومضاجعات مع
جماليات، وأطلقوا على «الديك الذى لا تأمنه دجاجة فى عشها» ولكن
الذى لم أحبه فيما رواه عنى قولهم أننى لم أضاجع تلك الجميلات
البريئات باختيارهن، بل أننى تحايلت عليهن وغررت بهن، وفى

النهاية كى أقدم لهن تعويضاً واعتذاراً أعطيهن أولاداً لهم حسنات
وصفات ليست لسائر البشر.

كنت أفضل أن تحبنى ولو واحدة.

بحثت لى عن قصة حب حقيقية، فوجدت فى الالبوم صورة
صفراء باهتة منسيّة. حمداً لصانعى الأساطير، وجدت من جابت
الأرض بحثاً عن أشلائى، حتى اذا جمعتها، وتلت عليها بعض
الأسجار دب فى الحياة، فنهضت، بمعاونة ابنى الذى به سررت من
تلك المرأة الوفية، كى أقضى على الشر الذى تمثل فى.. فى..
أتعرفون فيمن؟ أكاد أخجل من ذكر ذلك.. فى أخى. أسمعون؟ فى
أخى! فيالها من دنيا خئون، لا يأمن فيها لغده من أقرب المقربين اليه
أحد.

وأنى لأتساءل علي ضوء ذلك عما اذا كانت كليلو الصغيرة محقة
عندما بادرت الي قتل أخيها لتنفرد هى بالعرش دونه؟
فى النهاية، من أنا؟ وضعوا عنى - كما ترون - تصورات كثيرة،
لكنى لا أعرف من أنا، فهل سيعرف هؤلاء - ومن يجيئ بعدهم -
كنهى، بونى أنا؟.

يا صاحب الصوت الهامس المدوى، من أنت؟
لا تسألنى . لست كامل الوضوح. لا أبو إلا بمناسبة أحداث

قليلة وسرعان ما انزوى، أخفقى من حيث جئت، لئن أن تعرف شيئاً عن أصلى، ولا عن مظهرى، أو ميولى ونزواتى الخاصة. بدون وجه أنا ولا قسمات. لن تعرف لون عيني مثلاً، ولا طول قامتى. أبدوك كومضة عابرة، ولا ألبث أن انطفئ، وأغيب فى الظلمات. لا أريدك على أى حال أن تُشغَلَ بى، وأود أن تبادل فتتسانى.

تسألنى ما اسمى، فلا أجيبك، لا لأنى لا أريد الاجابة، بل لأننى أوقن أن الاسماء لا أهمية لها، أو على أى حال فلنرجىء ذكر اسمى الآن. سوف تعرفه فى وقت متأخر - لا اجزم بذلك، وأقول ربما - لأن معرفته الآن قد تكون حائلاً دون وضوح الرؤية. ولذلك يجدر ، بل يجب، ازاحته من طريقك وطريقى. سوف يتردد اسمى مرتين أو ثلاثة فى ثنايا ما ساقصه عليك، ولكن أعود فأكرر لك أن الاسم لا معنى له. وكل من سأحكى لك عنهم يمكن أن يجلس بعضهم محل بعض، ففوزى يمكن أن يضحى نعيم، ونعيم كان فى موقف فهم، فما الجدوى اذن فى مسار هذه الحياة الحافلة بالوقائع المنطمسة أن نتشبهت بالاسماء ونصر على معرفتها؟.

دعني أخرج من حافظتى صورتى. سوف ترى أنها صورة رجل مجهول، سوف تمضى فتتساءل هل له وجود حقيقى. ليكن ذلك، فإنى لا أريد أن اجتذب اهتمامك بى، فنتردى فيما هو نوع من «خداع

النظر». أخالك تقول ما الذى يريد منى هذا اللوح الدعى؟ سوف أجيئك، وإن أتردد فى إجابتى. إنى أهمس إليك قائلاً أريدك أن تزيد من معرفتك، فقد آليت على نفسى أن أتابع. أن أنظر الى ما حولى، وأسجل. وكى تتأتى هذه النظرة الموضوعية يجب أن تتلاشى أنت، وأتلاشى أنا. أن نرى، أنا وأنت من خلال هاتين العينين الغائبتين، ولن تضى نظرة كل منا هذه على الشئ المرئى ألواناً وظلالاً، بل فحسب ستجعله مرئياً، وهذا ما ابتغيه واسعى اليه. لاتعتقدن أننى بالكلمات أتلاعب. أنى استحثك وأغريك على الاقتراب قدر الامكان من حقيقة ظلت محاطة بالتحفظات والاكاذيب، فقد مضت الجثة تتضخم وترحم أرجاء الوجود الذى كانت تدعى يوماً ما أنها انما تستكشف أرجاءه. لن يكون الأمر بالنسبة لك سهلاً زول الأمر، فأننا لا أدعوك إلى حفل ترفيهى، وإنما أدعوك لأجابك بالصعاب. ولذلك أيضاً دعك من الاسترخاء، فستشق طريقك عبر تيه متشابك الدروب.

لا تسألنى إذن عن اسمى. ربما أكون «أبا الهوا» ويكتبونه أحيانا «أبا الهوى». لايعينك فى شئ اسمى، ولا يعنى أحداً، ولا حتى أنا. اعتبرنى بلا اسم. اعتبرنى رقماً، وبلا ملامح خارجية، وبلا هوية، فقد مزقتها منذ أمد، وصرت أمشى فى الليل بغيرها. ربما أريدك أن تعرف فحسب أننى مصاب بتآكل فى العمود الفقرى، وبالتهاب فى

الشرابين، ومعرض لأن أصاب للمرة الثالثة بجلطة فى الساق أو فى غيرها، كما أعانى من أكياس دهنية فى مواضع داخلية من جسمى. كنت أميل قديماً الى الشكوى. ثم مللتها، وصرت لا أمارس هذه المذلة.

انتهى، ما عاد لك معين يأخذ بيدك مثل الأعمى، ويقودك عبر الدروب، وأنت مطمئن اليه. انتهى. لم يعد للسكينة وجود عليك، إذن، أن تسترجع المعاناة منذ البداية. ادفع الحساب، وانهض خارجاً من ذلك المقهى الزخم. سر فى المتاهات الوعرة. سلبيتك التي كانت من قبل دعة وكسلاً، راحة مزعومة، سحب بساطها من تحت قدميك. حذارى، سوف تتحرك علي أرض زلقة. أفق إذن إملأ رئتيك بالهواء، وتأهب. الآن أقول لك، وأكرر عليك القول، «تأهب».

متاعب ليلة سادها الظلام

تعال، طلبتك تحققت. السنين الطوال، تمنيت أن نفرض طلاس
والغازاً. ها أنت هنا ستكتشف الأسرار كلها. ستزاح عنك الغشاوة.
سينحسر عنك عبء المجاملات. ستكون هنا، أردت أم لم ترد، فى
سكونك، خشناً، ضارياً، وفى عزلتك التي لا برأ لك منها متوحشاً.
وبلا مناظر ستبصر، وتعاين، وتدرک. الآن ستعيش الحقيقة. وسيتاح
لك كل ماتمنيته من قبل، يامن كنت على الدوام غريباً فى رؤاك،
جموحاً فى تصاویرك. ستركب خيولاً، وتلصق فى كتفك أجنحة. وبلا
وهم ستحيا خيالا، يفوق كل ما رأيته حتى فى أحلامك. أصبح التوق
حقيقة. ستصبح هنا مسجلاً ومصوراً وكاشفاً لأسرار، وسيكون
بمقدورك أن تعيد تقييم حساباتك. وتعرف بكل دقة إجابات لأسئلة
يلفها الغموض. أصبحت التخمينات والاجتهادات إذن حقيقة.
وسيهدهأ بالك، فما عاد الغموض غموضاً، فقط سوف تحتاج الى
التدريبات مناسبة، وإلا فكما جئت سترحل. وهذه المرة سوف يكون

الرحيل رحيلًا بحق.

انتبه. لا أَلْعَبُ بالألفاظ مثل غيرى. سوف تسألنى إذن، ما القدرات التى أعطيت لك، هنا؟ وسوف أجيب «بإمكانك أن تركز، وتسجل، وتحلل، وتحيل ما تتحصل عليه الى نبضات تكفى للمئ موسوعات وموسوعات بالمعلومات والبيانات التى أمكن جمعها من أماكن بأعماق الكون سحيقة». بل وسوف يكون بإمكانك أن تدلى فى بعض الأحيان. برود خاصة. احمل زكيبتك على ظهرك الذى وهن، والتقط كل شاردة وواردة من الموجات الضوئية أو الصوتية أو مهما كانت، فالامكانات لازالت متاحة. لا تجعل أى شىء يثبط من عزيمتك. أعرف. نعيش وسط بحيرة من الجارى والمازوت، ومخلفات مصانع، وركامات قمامة. بل أعرف أن مياه الجارى من حولنا ترعة فياضة، ولكن فيما مضى، كانت الريح تهب، وتفتح فى الماء ثقوباً، تسحب منها دموع الأسماك، وتنتثر على أديم الأرض زهوراً تنبت فى الأرجاء أشواقاً، وآمالاً، وأحلاماً، لا تجعل شيئاً مهما علت زخامته يصرفك عن الاعجاز الأعظم لا تجعل شيئاً يمنع من وصول الموجات اليك. دعك من صيد البط والأسماك. سوف أجعل منك صياد موجات، وعندئذ سوف تشاهد ما لم تقع عليه عين من قبل. أنت أشبه بطفل. جاوزت السبعين، لكنك طفل. صر صياداً لموجات المد العالية

من طاقات تدور فى دوامات حول الثقوب السوداء. هناك فى الأعماق.

وجدت هنا المغزى من وجودى كله. بعد الانفجار العظيم بسطت شباكى.

أسبح ضد الزمن، أقفز أسواراً كلما تجاوزت حاجزاً، بدت لى حواجز أخرى. ومازلت أسبح وأقفز. ويبدو أنه لازال على أن أسبح وأقفز طويلاً، طويلاً، لكننى بهذا، وبهذا وحده، وجدت أن لوجودى الممتد معنى.

أحببت فيما مضى تمثلاً رخامياً. رحت أتحسس جسده الأملس متيماً، لكننى اكتشفت أن ما بينى وبين هذا التمثال غربة، مضت تتسع هويتها، عانيت أول الأمر مشاعر مريرة من الحزن والاحباط ما عاد التمثال الذى كان ولا زال جميلاً يستثيرنى. وضعت رأسى على كفى. لم أستطع أن أقاوم نداءً وافداً من وراء أسوار المتحف حيث ترقد حبيبتي الرخامية. تركت نفسى لمستقبل غامض. اجتررت قلماً. أيامى تفلت منى. والفحيح أت من بعيد، فحيح فولاذى أرقط.

أيها العصفور الحزين، عليك أن تصبح نبراً، مخالبك من حديد، وقلبك بطارية تنبض موجات . ولى زمن أغانى الحب، تنشد تحت نافذة الحبيبة. اصنع لنفسك تمثالا جيداً، ولو من الحديد الخردة، فلن

ترق «فينوس» لحالك.

انطفأ الحب. واستحالت الجمرة المتقدة رماداً تحت رماد.
للضرورة أحكام، ومن منجزات التكنولوجيا صنع لنفسه تمثالاً.
تجاوز علاقات الحب السهلة، الكتابات المنقوشة علي الجدران تاكلت
وانطمست، بل أن الجدران ذاتها تهاوت. وإذا كان مجلد الأساطير
باقياً، فمن اللازم أن يطوى فصل، ويفتح آخر.

وقفزة الطل على ورقة شجر

«آخرون ذهبوا إلى الحدود» بحثوا كى يعرفوا. ثم عادوا آخر
النهار متعبين، لزموا الصمت. وأغرقتهم كآبة، ما لبثت أن استحالت
لدى البعض إلى تصفيق وصياح، ولدى البعض استحالت قسوة
متمادية، وكزاً على الأسنان.

فليرحلوا الآن ستحتجب بعد قليل الشمس والنجوم والقمر.
وسنبقى غارقين فى الظلمات. ليست المواسم والأعياد لنا، ولا حاجة
بنا الى رقص أو نغم، بعد أن أصابتنا حوريات التراب بالصمم.
ولو عالوا من جديد؟ سيجدون الأبواب موصدة. سوف يدقون
على صدورنا الجوفاء، ولا من مجيب. ما من أحد.

أدخلوك حديقة فسيحة الأرجاء، عالية الأسوار. مهمة على أى
حال، أكوام من القمامة هنا وهناك تحت الأشجار. لا مفر من أسلوب
الحياة هذا، حيث تتبول السكان، وتتبرز، وتنام، وتصحو، وتتناول
الإفطار. لا عليك، المكان هادئ، نسائمه رطبة. لما الشكوى إذن؟ أنت

هنا أحسن حالاً مما كنت عليه هناك فى شقتك بالدور الثانى، إلى جوار أرملتك دائبة التحقير من شأئك والتقليل من جهدك، وابنتك التى تصحو الليل بطوله، وتبكى فى النهار ساعات غير قليلة.

وددت أن يتركوك فى العراء مسجى، لكنهم خشوا عليك أن تضيع فى هذا الخلاء المبدد. زحفت معهم إلى جدار. أجلسوك فى حجرة، أوصدوا عليك بابها. سوف تكون أحسن حالا هنا. ستنام وتستريح من الصداع الذى كان ينتابك، فتشير إلى رأسك، وتتنظر إلى من حولك نظرات استعطاف، نون أن تستطيع الإفصاح. الشئ الوحيد الذى أعرف أنك ستعانى منه هنا، أنك لن تجد مقهى قريباً، تركن إليه، وتلعب بصحبة بعض من أرياب المعاشات النرد والدومينو لقتل الوقت، والوقت هنا ممتد، يستدعى القتل، لكن الأمور التى تبدو صعبة أو متعذرة أول الأمر لا تظل صعبة ومتعذرة على الدوام. لن تلبث أن يتبدل الحال بالصبر، وطول البال. ستجد بعد حين من حولك بعضاً من أمثالك. جاؤا إلى هنا، أو إن شئت الدقة جيئ بهم إلى هنا، لذات الغرض الذى من أجله جئت، أو جئ بك أنت أيضاً. والآن، هنا، ستلعبون الدومينو والنرد، وربما لعبتم أيضاً الكوتشينة. ولكن حذارى فحسب من أكلى الجيف. وإن كانوا هنا أحسن حالا من أكلى الجيف الذين التقيت بهم فى سابق أيامك، فأولئك ينهشون

لحمك للإساءة إليك، وهؤلاء يريحونك ويريحون الآخرون منك، وخاصة
فى هذا الزحام الذى لابد فيه من إعادة ترتيب الأوضاع لاعتبارات
الحيز المكانى والتلوث.

أغلقى الباب يا نجية، ولا تنبشى القمامة، هذا الصباح، أجل هذا
الصباح - أكان صباحاً أم مساءً؟ - أجل، هذا الصباح، وجد
البواب فى الصفيحة أشلاء امرأة زنجية كانت. يقال ذلك.

أوجه القصور فادحة. والأيدى المستخدمة غير مدربة.

اغلقى الباب، ولا تنبش، دعينا نستأنف حديثنا، يا نجية.

ليس الخل فى المكان، فالمكان هنا ليس بأسوأ من المكان الذى
جئت منه. المسألة نسبية كما ترى. الاماكن كلها سيان، والخل
بداخلك أنت.

هنا سوف تقف بيت الثرى والثريا، سوف تأسر الطير وتطلقه،
تكلم الجماد وتنطقه، وتقف على أوراق النبات وقفة الطل. هنا، سوف
ينفسح لك مجال التخيل ويتسع لك مكان الصمت، فقد أضحيت
بدورك صمتاً، أضحيت متخيلاً. هنا، لا أحد سيدخلك فى تجربة، فقد
شبع من التجارب، وتحدد من قبل معدنك. وأنت هنا بمنجاة عنه،
فهو قد انتهى منك. وعلى ذلك، فأنت من شىء على الإطلاق لا
تخشى، ومادمت لاتأمل، ولا تطمع، ولاتشتاق، فقد أقيم سد منيع

ك. وبيده. هنا المعنى، كل المعنى. أما الأسلوب فهو يواكب اللامعنى،
الذي هو المعنى الوحيد لكل أسلوب ومعنى.

ستغرق فى بحر النوم العميق بسرعة، وإن تتحایل على النوم.
فالحياة هنا إلى الأبد. والليل هنا يسدل ستائره السوداء، والأرض
من تحتك تنور، والأنجم فى السماوات من فوقك دوامات لا تهدأ.

وإذا فتحت ذراعيك بالليالى فسيمتلئ حضنك ظلمة، وإذا مددت
نراعيك الى القمر ستعودان الى قفصك خاليتين من ضوئه. وحتى
الشموع التى أوقدها لك أحباؤك عند مفرق الطريق ذابت وانطفأت.

قرأت على الباب لافتتك. أنت إذن كنت متواجداً، مجرد عابر
سبيل أتريد أن تعود إلى هناك؟ لهذا السبب وحده تريد العودة؟ إذن.
فأنت من جديد، لم تفهم. أنها تعطى لك مرة واحدة. ثمة أشياء أخرى
للفهم عليك أن تعيها وتستوعبها. هنا، فى هذا الهدوء، وهذه العزلة،
إشحن فكرك، وحاول. ربما توصلت إلى الفهم الصحيح، وأدركت
الجوهر. وعلى أى حال، فالأمر مثبط للهمم، فهناك أكثر من جوهر.
وليس من السهل ألا يتشتت فكرك بين جوهر وجوهر. ولكن عليك ألا
تقف مكتوف اليدين، بليد الاحساس، هكذا. قم. حاول إلي حد
الجنون، وليعل صوت نحيبك ولتذرف الدمع الذى قد يغسل ادراكك،
ويجلو بصيرتك بالألم وحده ستفهم. فأقبل عليه، ولا تهرب، حتى لو

هرب منك، الحق به، واحقن به نفسك. اجرع حتى الثمالة كأسه. أنه أكسير الحياة، أو تعرف ما الموت حقاً؟ إنها تذكرة الدخول إلى هنا. ألا تعرف ذلك؟. وهذا المكان الداخل إليه مولود، لأنه يعطى محاولة رهيبة كي يفهم. أما هناك فالداخل إليه مفقود، لأنه لا يعطى فرصة للفهم، ولا يفهم، والخارج منه مولود، لأنه أضحى بامكانه أن يشحذ خياله إلى حد الجنون، وقد يفهم.

فى هذا الخلاء وهذه الغربية، أنعم حقاً بما لم أكن لى به سابق معرفة. أنعم بحقيقتى. نزعت الأقنعة عن وجهى، ومحوت المساحيق. إلى الوراء، لا أريد أن أرجع.

عندما كنت تحلق كانوا يقولون فراشة، فالأ حسناً، ملكاً. وعندما سقطت، وارتطمت بالأرض، فلا بد أنك عرفت الآن من أنت حقاً. لازالت الأرض الخراب من حولنا تنبت زرعاً أخضر، ومن بعيد، يفد من مكان ما، لا أحد يدرى أين، خيرير ماء، ربما من جدول أو قناة أو ترعة، إلا أنه ليس بحراً، فالصوت ينساب ناعماً متسللاً باعثاً الراحة فى القلوب، وليس هديرأ متبعثاً من موج يتلاطم، أو يندفع موجة فى إثر أخرى. لابد أنه ماء عذب يسرى فى عروق الأرض الجافة، فيروى غليلها، وليس ماء مالحاً، يلسع ويحرق.

عقب واحد على ذلك فقال «بل هو مصرف صحى، ليس ببعيد من

هنا، وهذا صوت المخلفات السائلة تنهال عليه، وتتدفق. من الجوب،
تفد أدخنة وسحب ترايبية. أهى من جديد، أعمال تخريب؟ لعل هذه
المتاريس من حولنا لصد الهجمات، فلنستدر علي أعقابنا، اذن ونرتد
داخليين ونصد عن نواتنا كل ما ليس منا.

على الأقل لن تموت هنا من العطش. الشئ الوحيد الذى نخشاه
جميعا هنا هو الحريق، ولا شئ سوى الحريق. حذارى على الأخص
أن تنشب النار بداخلك.

أتى السائل المنظف مفعوله. حل الظلام من حولنا. فى كل
الارحاء إحساس بحزن دفين للرحيل عن الديار القديمة، وتمزق
الصلوات بالجنور، وعلى أى حال، فهم يأخنون معهم جزازات من
حيوات، قديمة، تذكارات، وسوف تخبو فى كيان كل منهم، بدورها.

طلبت أن ينقذك

اليوم نهضت مبتهجاً استيقظ بداخلي أمل ظننت من قبل أنه عاد
له فى عظامى وجود. عرفت أنك لازلت تذكرنى، وانك لم تتخل عنى.
نهضت مبتهجاً. ما عاد يعينى الفحيح ولا الصليل من حولى. تناولت
سيجاراً ورحت أدخن. وفى المساء لعبت دوراً من الشطرنج ربحته،
بعد أن فقدت أثمان القطع، حتى الملك كدت أفقد، لكن الأمل شىء
عظيم فطيع، يجعلك تحارب حتي المعارك الخاسرة، وإذا بك فى
النهاية تكسبها.

طلبت أن ينقذك، لكنك نسيت أنك فتحت أبوابك على مصراعيها
لعدوه، حتى أنشب فيك ذلك العدو أنيابه ومخالبه، وتصرخ الآن طالباً
معجزة، طالباً أن ينقذك. ألا ترى أن الأوان فات على المعجزات التى
من هذا القبيل؟ كن منصفاً. اعترف، وفكر بطريقة أكثر واقعية.

فى لحظات كثيرة تمنيت أن أجيئ اليك، وها أنا جئت. اطلت من
الباب. اقرأتنى تحية الصباح، على غير عادتك. رشفة من قدحك

الورقى. أزلت بلسانك الوردى قطرة من القهوة علقت بحافة شاربك السفلى التى تظلل شفتك العلياو بل شفتيك، سألت هل بالإمكان؟ قلت لا أدري، يجب أن تسألها. فسألت ولكن هل عادت. قلت أمين. التفت إلى باب الغرفة التالية، وسألتنى وأنت متى ستجهز؟ قلت حالاً ساعتين على الأكثر، ويكون كل شىء جاهزاً.

ومضيت فى الممشى الذى تتراص الأبواب المفتوحة على جانبيه إلى ما لا نهاية.ربما لتصل الى آخره، ثم تنزل الدرجات إلى دور سفلى. أو ربما كى تسأل ذات الأسئلة عند باب آخر من تلك الأبواب اللانهائية. أو ربما كى تقبع كعادتك فى ركن من الأركان متربصاً لمن لا أدري، ولا لماذا أيضاً لا أدري.

من أحد الأبواب هناك، آتانى الصوت والحوافز؟ ثم سريعاً جاء ردك القاعدة عدم جواز الجمع عاد الصوت يسبأل والمشغولات الفضية؟ وعاد صوتك من تحت شاربيك يجيب سوف تتركها. هذا أمر. وتعالى خافقة من الآخر همهمات الاحتجاج، دون أن ترقى الى حد الجهر أو الافصاح بشىء.

حذارى، لا تجرب من جديد. كل شىء هناك مات. حتى الشجر يفرز بالنهاز كربونا، والموج أضحى مثل تجاعيد على جبهة عجوز. كل شىء هناك تحجر . حاولت كثيراً أن تهرب من الفكرة، وأن

تظردها عن دماغك فى البداية يبدو لك الأمر جذاباً، تنبهر وتبدى إعجاباً، ولكن كلما مضيت تتأمل التفاصيل فتر حماسك، وتبدد فركك، وأحسست فى النهاية أن الأمر كان مجرد خداع مثل سائر الخدع الأخرى.

تعال الى مقعد أكثر طراوة.

هنا الثعابين فى هيئة صلبان، والمسمومة منها تتشابك. ألم تحضر بعض الصور الخليعة؟ ولا الكتب البذيئة؟

كانت ستروج هنا، فهى فى كل مكان تروج حتى هنا، بل وعلى الأخص هنا. كان سيكسبك هذا شعبية كبيرة، فيقبل عليك العديدون يطرقون بابك، مترددين إليك، كى يتوصلوا الى طلبتهم.

طرق الباب. حتى لو تصنعت أننى لا أسمع، فسوف يفتح الباب بعد قليل.

مرحباً بالقادِم، مرحباً، انتظرتك منذ أمد طويل. وها أنت جئت. ليس لى ما أقوله لك سوى لماذا تأخرت فى المجئ. هذا عتاب وترحيب اجلس. اجلس. أزع تلك الكتب من على الكرسي هناك، واجلس. دعنا نتحاور قليلاً ونثرثر ألا تريه؟ ليس لديك وقت؟ حسناً. دقيقة سوف ارتدى معطفى، وأجئ معك. لديك إذن بالقبض؟ مجرد سؤال. متأكد أنت من سلامته؟ أليس فى الاسم أو العنوان خطأ أو لبس؟ أعرف

أنك لاتسهو، ولا تخطئ. ليس لديك وقت؟ جوادك تركته على قارعة الطريق، ولا تريد أن تتأخر؟ لماذا يا أخى، لم تصعد به إلى هنا؟ سوف كنت أكرمه ببعض العليق من ورق الكتب. تريدنى أن أصمت؟ تتعجلنى؟ تريدنى أن أنزل معك كما أنا؟ حسنا، فلنذهب كما ولدتنى أمى. أنا جاهز. تضحك ضحكك الجهمة، وتقول قليلون من تجدهم جاهزين للنزول معك؟ كلا، يا صديقى، قلت لك أنى كنت أعجب لتأخرك فى المجئ، حتى أنه فى لحظة خطر ببالى أنك ربما لن تجئ. وكدت أطفئ الشموع، وإلى فراشى أهجع حتى الصباح. هيا، إذن ننزل. اطفى أنت الشموع، والحق بى. هاك المفتاح، أقفل به الباب، وتعال.

ها أنا إليك جئت. تقول أنك منحتنى أغلى شىء. إذن ماذا تريد منى، وأنت فى أى لحظة، تستطيع أن تنتزع منى ما منحت؟ وها أنت تذهب بى كى تنتزعه منى. ثم بعد ذلك - وليس قبل ذلك - يبدأ التحقيق.

كل يوم يفتحون حقيبتك. يقلبون محتوياتها. ينظرون فى كل الأركان، ويدسون أصابعهم. ثم يعتذرون اليك، ويغلقونها، ويعطونها لك. لكن بداخلك احساساً بأن ذلك لن يحدث يوماً، ولن تعاد اليك حقيبتك، ولذلك فأنت حتى لو سهى عليهم أن يفتحوها تفتحها لهم،

وتصر على تفتيشها . نظراتك إلى عيونهم تسأل « هذا سيحصل اليوم؟ » وبأدب يريونها لك دون تفتيش . وتمضى . تدخل إلى حيث كتب عليك أن تقضى بقية يومك ، الى جوار شباك لا يطل على شيء . تنتظر الى الخارج من وراء زجاج ليس قابلاً للفتح ، ولا للكسر أيضاً .

عندما يحتاجون إليك يؤدون أمامك حركات بهلوانية ، فاذا ما قضيت لهم حاجتهم ، تجاهلوك ، وما عادوا يلتفتون إليك ، حتى لو وقعت على الأرض ، وتلفت حولك ، علمك تجد من يقيك من عثرتك ، أعرضوا عنك ، وشاحوا . حقاً ، لا أحد . لا أحد .

لم يبق لخلصى ، سوى القليل ، بل القليل جداً ، لكنى اتشبت بهذا القليل ، حتى استحق من الرحمة من جديد .

وعندئذ ستتحقق المعجزة .

هذه الشوكة الصغيرة التي بقيت لك ، تعهدا حتى تضحى رمحاً قويا ، تطعن به التنين فى احشائه ، وتقضى عليه .

ربما اقلت من قبضته . ربما . عندئذ سوف تلعب لعبة النهاية من جديد .

إنها حقيقة ، يا من تتشبت بالحقيقة . أنه جاء لزيارتك ليلة أمس . شعرت بالرعدة تجتاح الجسد ، وكأنك فى كابوس صرخت حتى قفز ابنك الراقد على السرير الذى بجوارك ، وزغدك فشعرت بالآلم فى

ضلوعك من تأثير أصابعه الدقيقة النحيلة.

قلت «أى»!

واستيقظت.

تنفست الصعداء وزايلتك القشعريرة التي دفعتك إلى الصراخ
مبهور الأنفاس، ولكنك كنت متأكداً أنه جاء، وغمرك من اخصم
قدميك إلى كل شعرة من شعر رأسك الأشيب، كما تجتاح الموجة
صخرة فى البحر وتغمرها. ثم تعود فتتحسر عنها تاركة على أديم
الصخرة بللها.

أجل، جاء لزيارتك ليلة أمس. أنت متأكد من ذلك. إنها حقيقة.
أجاء يطمئن على عبد من عبيده، وأن ينفث فيه من أنفاسه؟
ولكن.. هل أنت تريد أن تكون تابعاً له، حقاً؟ اذا كنت قد كففت
عن الايمان، فهل يعنى ذلك أنك انتويت أن تنضم إلى صفوفه؟
«كلا».

أنا لا أريد أن انضم الى أحد. لا أريد أن أكون تابعاً لأحد. أريد
أن أكون لعقلي وحده. لا سلطان لأحد على.
هل ينحدر بك الحال إذن إلى أن ترفض الخضوع ابتداءً، وتنفض
عن قدميك الأغلال، لتمضى فتتردى فى فخ أشد إحكاماً؟
إنه بحسب ما وصفته الأساطير، صار ما صار عليه لأنه بعد أن

كان من الاتباع المبرزين، تمرد وقال. «لا» ولكنه عندما قال هذه «اللا» قالها كما ذكرت تلك الأساطير ليس لوجه الله، بل من أجل أن يتبوأ العرش، ويستولى عليه، مفتزعا إياه من صاحبه.

بينك وبينه على أى حال اختلاف جذرى. أنت لا تريد أن تخضع، كى تسرد قدرتك على البحث عن الحق، ولا تريد مثله أن تكون زيوس . أو تنصب نفسك قام أى ملك أو إله.

إنك تريد، وإنى على ذلك أجزم، تريد فحسب أن تعود لتبحث عما تريد أن تبحث عنه، عما هو جدير بالبحث عنه، عما بغير البحث عنه لا يضحى للحياة هوية أو مذاقا أو معنى.

أما هو .. فلماذا زارك ليلة البارحة؟ هل يعتقد أنك أصبحت له؟ هل وهنت جذورك، وتخلخل ارتباطك بتربتك، ولهذا يريد أن يقتلعك منها، ويلقى بك الى زكيبته، زكية العظام النخرة؟ ربما اعتقد هو ذلك.

أما أنت فسوف تقول له بدوره «كلا، بل وألف كلا» فقد طرحت عن كاهلك هذه الاكذوبة الكبيرة التى هى هو.

هل طرحتها عن كاهلك إلى الأبد، حقا؟ أعرف كم هى صعبة ومحزنة هذه الانتفاضة، وهل أضحى هناك ما هو سهل؟ أين أنت ، يا مخلصى؟ أين أنت؟

عناق الصخر

خبيث، متحجر القلب. قادر علي الانتظار بصبر.
أمصينا، ياماً مسسوجة حوله، مركزة عليه الاهتمام له واليه. ابتلع
الجهد في الاستيعاب والذمم والتطبع.
حول سريريه، في الغرفة ذات الستائر الكثيفة السوداء من حولنا،
مضينا نتابع أنفاسه الثقالة، متوقعين، وإن طال توقعنا، أنها ستخمد.
كان يجب أن يقصى ليتسنى رؤية الوجود،
في قرارة نفسى، كنت أقول لنفسى:
«ليس العالم هو أنت».
منذ الذى سيزيح الستائر المسدلة على عيوننا؟
لا أستطيع أن انتبأ لك بخطوته القادمة.
سوف يدعك علي الدوام تتوقع، وتتأهب لشيء ما سوف يحدث،
وهو لا محالة سيحدث، وإن كان لن يحدث، فذلك الذى لن يحدث هو
ما كان يجب أن تتوقعه منه، على أى حال.

قالت :

«لابد أن نتخلص، أجل نتخلص منه، وبهذا تؤول الينا الثروة».

قلت:

«ألا تشفقين عليه؟»

قالت :

«أنا آلهة العقاب. لم يحدث لأحد أن علمني البكاء».

قلت :

«يقولون الكفن ليس له جيوب».

قالت :

« ولكن متى كانت الثروات تستبقى فى الجيوب؟ يمكن زن

نستبقياها فى أماكن أخرى أكثر أمنا».

قلت :

«أجدادنا احتفظوا بين أسنانهم بقطع ذهبية».

علقت على ذلك قائلة:

«كانوا نوى حنكة»

قلت :

«ادخلوها فى فمهم المطبق، إلا من ابتسامه تكتسى بها الشفاة».

لمعت عيناها، وقالت فى حزم:

«يعرفون أن الرشوة أسلوب انجاز أعمال».

أردفت تقول:

«ما رأيك؟ ألن تستيقظ اذن؟ افتح فمك. دعنى أرى ماذا تخبئ

وراء ابتسامتك الجهمة، يا من يجرى حب القمار فى دمك».

تخطئ أشد الخطأ اذا ايقظت غضبه، أو حاولت ذلك، فهو لا
يغضب سريعاً، ولا يُستثار. إسأل فى ذلك علماء الرياح والجبال
وبواطن الأرض، حيث كل شىء مرجل يغلى فى الخفاء.

نبيت ونصحو على خدعة لازال يتمسك بها عدد لا بأس به من
معارفنا. استطاعت هذه الخدعة أن تبدو وكبديل، ولكن خدعة هؤلاء
ما لبثت أن بانّت عليها الاصابة بداء النفاق والملق.

يدعونك إلى الاستسلام لأمر سهل أليف، فى متناول يدك، وما هو
بذلك، يعطونك إحساسا كما لو كنت تدخل مقهى اعتدت ارتياده،
والتردد عليه، وإذا بك بتأثير ذلك الايهام قد أضحيت كسولاً خاملاً لا
تبذل جهداً. تنادى النادل فيأتى إليك بالطلبات. يضعها على
المنضدة، ويسألك «أى خدمة؟» كلماتهم غواية وفتنة. كلماتهم ليست
إلا دعارة. وحتى لو اقتادتك تلك الكلمات إلى قمة المجد وأجلستم
على العرض، فلن تلبث أن تفيق من تأثيرها المخدر، فتجد أنك
شارفت على الجنون، وأطللت على هاويته.

يتظاهر بأنه يتخذ حيالك موقف الدفاع. وأن ما يحدث من شر أو اعتداء هو منك، وأن المعتدى سوف لا يمر دون عقاب.

ترديت فى الشراك، السمرء يسمونها «واقعية» والشقراء يسمونها «مثالية» وكلتاها بغیضة وإن كانتا قد اجتذبتا الكثيرين، وأوردتا هم مورد الهلاك. وعلى الأخص الثانية. تلك الشقراء اللعينة راح ضحيتها أكثر بكثير من اردتهم الاوبئة والبراكين والفيضانات. دوامات الريح والأمواج أرحم بكثير من «مثالية» هذه التى يمكن أن تستحيل إلى مرض فتاك، ينهض جوانح من استبدت بهم، ويطيح بمن مارست عليهم نفوذها الأخاذ.

«الواقعية والمثالية، هراء؟ والحقيقة؟»

«عنها سوف أحدثك، فيما بعد».

استلهمت وجودك الدائم، عكفت على تفسير كلماتك. استنبطت معانيك.

صوت مثل الغراب، يقات طيناً، ولا يرضى عنه بديلاً.

صرخت بلا صوت:

من أنا؟ فى هذه الحديقة القاسية، من أنا؟

من المسجى على السرير، وقد الصوت الهامس الموى لم تتحرك

شفته، ولكن وفد إلى الصوت:

لست سوى آلة، عدسة مثلاً. أنت موصد يتابع ويسجل.

احترم الحقيقة.

شجنتك ليس سوى المشجب الذى تعلق عليه الرغبة فى الاستجلاء.

لا تقل أنك فضضت يدك من هذا الوجود كله، وما عاد يعنى بالنسبة

لك شيئاً، لا تقل - على الأقل لى أنا - أنك انزويت هنا مختاراً، وأنه

ليس لك اختيارات أخرى. بل إن انزوائك هنا لا معنى له إلا أنه ينم

عن إحباط دفين، سببه العجز السابق عن المعرفة ورؤية الحقيقة.

انت واهم اذا اعتقدت انك تشكل الشيء المرئى أو تستحوذ عليه.

كل ما لك وما عليك، هو أن تجعله مرئياً هذه سعادتك الوحيدة، وهذه

هى علة انزوائك هنا. ليس هذا الركن ما تريده حقاً، ليس هذا الركن

خاتمة المطاف. هناك ما هو أبعد من الحياة ومن الموت. ومن كل

الأركان. لكنك ما كنت بقادر أن تدرك هذا. واذ يتبدد وجودك من بين

يديك، كما تغلت حفنة من رمل سيناء من بين أصابعك، فأنت تبلغ

منتهى الشقاء، وبهذا الركن تلوذ. ولكن ليس هذا خاتمة مطافك، أيها

الجهاز المعقد التركيب، والمشحون بطقات كونية.

ماذا تريد منى؟ لماذا تعذبينى؟ ألا نك تحبنى، ولأئنى زحبك؟ أنت

تعرف كم أحبك. وكم أتعذب.

استحثك وأغريك على الاقتراب قدر الامكان من حقيقة ظلت

محاطة بالتحفظات والأكاذيب. من أجل هذا جلبتك الى هنا .

إن الرغبة الدفينة فى التلاقى والملازمة هو الذى دعاك إلى أن تنزوى فى هذا الركن الترابى العدمى، وأن تحذف وجودك. ليس ذلك من أجل الانكباب على نفسك، فهذا افقار لوجودك وللوجود كله، ذلك الوجود الذى رغم مخاتلاته ينتظرك، كى تعرفه، كى يأخذك بين أحضانه الرحيبة الرهيبة، وقد يسحقك عناقه، ولكنه عناق حب واشتياق.

أريدك أن تحرّم نفسك من الايماءات السهلة التى توقعك فى نوع من خداع النظر.

اخترم نفسك.

تلاش أمام ما يرى ويسمع ويحس.

إنمّح إذن، حتى تحتل الحقيقة المقام الأول.

تقدم إذن، لا ترهب الألم. إن صرختك على خشبة الصليب، وعظامك تتكسر هى شهادتك على أنك رفعت قامتك كى تعرف .

هناك على اللوام ما هو جدير بأن يعرف. لا تقل «لا شىء هناك» بل هناك ما هو ذهل. ومن أجل البلوغ الى هذا المذهل فلتتحطم. وان كان هذا التحطم ليس على أى حال محتما. لا أحد يعرف . كل شىء مغامرة.

تقبلها .

ارتض الرهان.

ما الوجود ، يا سيدى؟ ليس الوجود أنا ولا أنت. استرد توازنك من فضلك وتظهر. ليس المهم أنت، بل الوجود كله هو المهم. ومن خلال الوجود تكون أنت، ويكون وجودك. فرديتك اذن نتيجة، وليست أصلا ولا بداية. أنت لا تكتسب وضوحك إلا من مواقفك الوجودية، أما قبل ذلك ويغير ذلك فلسة سوى مجرد افتراض. مجرد افتراض أنت.. هل تسمعنى؟

تساءلنا كثيراً

تساءلنا كثيراً ماذا نسمى مقهانا؟ من تحيرنا وفى النهاية سميناه «مرحبا». كل يوم، بل كل ساعة نرحب فيه بوافدين جدد. نقدم لهم أقداحاً خاوية. وفى السكون لا يرتفع صوت مغنية، ولا الصاجات تلمع بين أصابع راقصة.

انهم يعدون المنضدة المجاورة، يزيلون من عليها بقايا الليلة الماضية. ينفضون الغطاء الذى بهتت مربعاته الملونة، ويضعون فى منتصفها إناء الزهر فواح الرائحة. ترى من الوافد الجديد؟ سمعتهم يتحدثون عنه ويتهامسون. كانوا عنك يتحدثون، فقلت كالمعتاد «مرحبا».

الشيء الذى لا يمكنك أن تفسره، لا تهمله. عليك أن تقتصر بالنسبة له على الوصف. ولنمض إذن إلى الوصف. دعنا نرى ماذا سنقول، فى مجال الوصف، معاً. ولكن فلاحمى فى أذنك أولاً، وأسألك: هل أحضرت معك زمميتك؟ أعرف أنه جاء إلى، وهو يجلس

الآن، يستمع الى تشيكوفسكى. تلك النغمة التى كان يترنم بها بصوته الأجلش فى شبابه، تتردد فى أرجاء سيارتى، وأنا امضى إلى هناك.. وأخاله جالسا بالمقعد الجلدى المتهزئ، يتطلع من النافذة إلى بعيد، ويصفى إلى مقطوعته القديمة المفضلة.

أجساد تختفى، وأخرى تحل محلها. تخطر لحظة، تغنى، ترقص ربما مثل الطير مذبحاً من الألم، ثم تختفى. لا شىء فى هذا المكان تغير منذ جئنا اليه، واضحين على أهبة الاستعداد أن نختفى منه بدورنا سوف يحل محلنا غيرنا، كما حللنا نحن محل غيرنا. أجساد تتكدس فوق أجساد، وعمائر تشيد فوق عمائر، والزمن القهار دائر. هل يرقد أولئك الذين ضحينا من أجلهم براحتنا، مرتاحين؟ هل ينعمون الآن براحة البال، لقاء ما بذلناه من دماء وعرق؟ هل تحرسهم فى رقادهم أهانتنا وصرخات معاناتنا؟ لم يبق من البيوت التى بنوها فى الزمان الغابر سوى أطلال، وفى بعض الأحياء اندثرت بأكملها، ولم يبق منها نحت أو حجر، ولا حتى جدار. ماذا كان مصيرهم؟ أكان مثل مصائر تلك العمائر التى بنيناها لهم نحن؟ ونحن، من نحن؟ ومن أين يفد صوتنا هذا؟ أهو صمت أجوف نملأه بخيالات، ونتوهم أننا نسمع فيه من حناجرنا أصوات. وإذا كان كل هذا مجرد خيال، فمن أين تأتى هذه الخيالات، ومن أصحابها؟ إنهم

كما لو لم يكونوا قد وجدوا . كما لو لم تكن قد وجدنا على الإطلاق يوماً . وفى القريب العاجل، لن يكون لنا قائمة بدونها، نحن الذين نجار الآن بالشكوى ونثرثر. ما من أحدهم عاد إلينا ن حيث ذهب كى يخبرنا، ويطمئنا على اللحظة التى سنمضى نحن فيها ببورنا إلى هناك، ولا نرجع. لهذا فاننى، يا بنى أنصحك أن تجمد فى أعماقك القلق، ولا تسأل. . اهتبل السعادة كلما وجدت إليها سبيلاً مشروعاً لائقاً. اتبع املاءات قلبك، كى تكون راضياً، ولا تقل يوماً «حرمت من هذه المتعة أو تلك» بل قل «شكراً، منحت من المتع ما لم أكن حتى استحقه، واعلم أن أكبر المتع هو أن تفعل الخير لغيرك. أن تفعل الخير لجمال الخير، ولا تنتظر أجراً . لا تكن من الضالعين فى عمل الشر، فالشر دميم، ولن يكسبك متعة، حتى لو بدت لك الأمور على غير ذلك. متع نفسك، يا بنى اذن، حتى اذا ما جاءت ساعتك، وانفتح لك الباب، لتدخل منه الى حيث أوزوريس وحوس، تكون قد نلت - بلا طمع - من المتع كفايتك.

سوف اتركك الان. ربما بلياً. أرى من هم اتون اليك سوف يمارسون معك طقوس الخداع. لا بأس، تحمل غواطفهم اللزجة. سيمضى كل شىء بعد قليل لحال سبيله، وسنبقى مرة أخرى بمفردنا، لنجتز مواضينا. ونؤدى طقوس الخلاص. لن يبقى نهم أحد

طويلا. بعض الدموع تذرف. ثم يخيم الصمت من جديد، وانتظر. سوف تسود العزلة. عزلتنا هذه هي المتعة. التي لا يقوى عليها أحد منهم. وإن فى بعض اللحظات يتمناها، ويطلبها البعض، دون أن يقدم عليها. أنما نحن فقد خلصنا. اترك الآن كما قلت. وربما عدت إليك.. ربما.

سوف يقول لهم ذلك المتشع بالسواذ، صاحب الوجه الذى تقدح عيناه شررا «لجدوى يا ماما، لا جدوى يا ابنتى». «عودوا من حيث أتيتم. عودوا إلى البيت».

أمل ألا يكون الآتى قد جاء من أجل نقلك، كلك أو بعضك، إلى حيث سيتخذك صاحب الغرفة التي تؤجرها له أمى مادة للاستذكار. نبيل، أسمع الصليل! إنها قادمة! تخل عن منضدة اللعب. ارم الدش والدو، واهرع الى سريرك الحجرى، ارقد فيه، وتظاهر بأنك نائم. إنها قادمة. أسمع الصليل؟! دعك من وفاق اللعب، وأعمل حسابا لصليها، فانت جديد بيننا، وهى لا تسعى إلا إلى المستجدين، أما الآخرون، فهم بالنسبة لها مستنفدون. انفض عن شفقتك سيجارك الأسود، وتظاهر بالرقاد والنوم. إنها شكليات فحسب، ولكن حذار من عدم اتباعها.

ستلعب الورق الليلة، ام ستكتفى بالومينو؟

استيقظ، استيقظ. امتد بك الرقاد. تأخرت. لا أريد منك شيئاً.
سيان عندي رقادك أم صحوك. ولكن هناك التزامات. المسؤوليات
كلها، لا تتركها على وحدي.

تعال، فلنشرب قدحاً، نذيب همومنا فيه، وننسى. هيا خذ هذا
الفارغ. لا يعينيك. إن كان مشروخاً، املاؤه كلما فرغ، ولنقل
متظاهرين أننا نشرب «فى صحتك». سو. تنسى من أول رشفة،
فالتظاهر يحقق بعض الأحيان المعجزات. كنا فمياً مضى نتظاهر
أننا متواجدون. وقد صدقونا، وبلغ البعض منا بفضل ذلك الى نتائج
باهرة. انت تعرف عنم أتكلم، وعما أقول «فى صحتك». خذ هذه. لا
تعاتبنى. زنى أطوح بالقدح بعيداً حيث سيهوى وتسمع حطامه
يتكسر على الأرض عند ارتطامه ببلاط الممشى الصلب. «الذى
انكسر لا ينصلح». لازالت أشلاء هذه العبارة تتكسر فى اذنى. تعال.
تعال. الق رأسك على كتفى. اسندها إلى تجويف صدرى. ولننعم
بلحظة بكاء صامت صادق يعسل الأدران والهموم. هذا ما نحتاجه
حقاً، وبعد ذلك، سوف ترى سوف يتأتى لنا تحمل مسيرتنا.

هذا شأننا جميعاً هنا، نحن الذين حللنا قبلك. فلست الأول ولا
الأخير، أيها الفارس الأعزل. أقول لك إهدأ واستسلم، وسوف يتغير
- متى عرفت قوانين اللعبة - كل شيء من حولك.

تعال، إذن نلقى النرد ونلعب الطاولة. ثمّة بصيص من ضوء
يرافقنا. ترى هل أضحت لنا صلاحيات القطط، لا يطرف لها جفن،
وفي الظلام تبصر؟

حجارة رمادية بنية

انفصلت. انطويت علي نفسك. صرت من مكنك غير مكترث بما
يجرى خارك. اذا ركزت فعلى ذاتك، أو على خارج عرض من خلال
ذاتك أيضا التي مهما تصورت فهي لا تقل عنه عرضية. تختلط عليك
الأمور، فتركن إلى السخرية. تصورك الذاتى للحقيقة الموضوعية لا
يلبث أن يفضى بك إلى نوع من السخرية، تهاجم الأشياء والاشكال
معاً، من زاوية ما يضيفه عليها انطباعك الشخصى.

تنتزع الوقائع من مجالها العادى. تدفع بها من لعبة من الروابط
غير المتوقعة، ينتابك الدوار. يختلط الواقع والأزافى خارج كل حدود
المألوف اليومى فيكتسى ما حواك بجدة جهمة خشنة، وإن ظل الطابع
السائد وهماً موحياً بعدم الوجود، أو على الأقل بأهمية زائفة،
خداعة. وبموضوعية مشكوك فيها تدور عيناك فى محجريهما، وأنت
ملازم جحرك، ملصقاً ظهرك بالساتر الترابى. تنظر إلى ما حواك
بازدراء. تعادى العالم الخارجى، مستمداً أحاسيسك هذه مما تثيره

الذاتية فى الأعماق، مما لا يمكن للتفاهة الانسانية وراثثة الحياة اليومية أن تدركه تتشبت بممكنك، وفى خضم الغناء والراثثة تصرخ فى أعماقك هامساً. إنى أكاد اسمعك، بل وأصرخ معك. غير معقول أن يكون هذا الغناء خاتمة مطاف. وتظل تشعر بالمسئولية، وتظل تعتبر نفسك مسئولاً. مسئولاً عن ماذا؟ عن الابقاء علي ما له وحده معنى فى الحياة الانسانية. تشعر بأن كاهلك أنت أيها الجرذ محملاً بالمسئولية عن الإنسانية التى صرت بعيداً عنها بفراسخ. تركتها بالخارج، أو هكذا اعتقدت، ولكن ها هى تلاحقك، وهل تستطيع زن تفلت منها؟ حتى فى ممكنك هذا، هل تستطيع أن تهرب؟ هل كتبت لك ذاتيتك خلاصاً؟ اسمعك فى النهاية تنتهد، وتزفر قائلاً على الأقل، لم أحن، ولم أتنصل، بينما سوف يقول آلاف الامعات خارجك أنك جبنيت وهربت، فهل نفعتك إذن ذاتيتك؟ سوف تنكس الرأس وتقول علي الأقل هى الشىء الذى يبقى الجدير أن يبقى. تقصد. ولكن اتظن أن هناك ما يبقى؟ وإلى متى؟ لا تجزع. سوف ادعك لبليتك. وأنت تعرف أن شر البلية ما يضحك. لست ألع عليك بالاجابة. هنيئاً لك تهكمك الأسود.

(برهة صمت)

قوة سلبية هو؟ هذا التهكم الأسود وسلبية؟ ستار يقف حائلاً

بين العقل والنظام الذى استتب علي وجود هذا العالم، فلا تنجذب إليه منخدعاً به؟ دعنى إذن، أفكر معك، وأتأمل. فلئن كنا قد حررنا هنا متعاً عدة، فقد أتاحت لنا متعة قصوى، علينا الا نضيعها. أسمعنى من فضلك ما تقول. ارفع صوتك. لا تخش. لن يسمعنا أحد. وليت أحداً يسمعنا.

إذن، دعنى أقول لك:

أنت لست أداة فى يد قدر متحكم، أو واقعة فى تاريخ حتمى، أو بطولة ظافرة أو مخففة. لم تعد لا الأخلاقيات، ولا السياسات ولا الاجتماعيات، ولا حتى السيكلوجيات هي العصب، إنما يتعلق الأمر باستقصاء الوجود، بغير التفات الى أى اقحام يشوه من الرؤية. العصب صار عملية استجلاء مع سبق إصرار وترصد. فى ركنك المترب أرفض تمدد الشخصية. لا تجعل الجثة، تتضخم وتتضخم، وتزحم أرجاء الوجود الذى أنت مدعو الى أن تستكتشفه. أن الألوان كى يفك أسارك، وتتحرر. وفى هذا المقام احذر أن تستخدم مطية لأغراض من خارجك. أنت لست مدعوأ إلى حفل تكريم زو ترفيه، وإنما أنت مدعو لمجابهة صعاب. تخل إذن عن كسلك واسترخائك. إن عمليات التجهيل والتعمية التي مورست عليك قد ألقت بك فى صميم تيه متشابك الدروب، وعليك أن تشق طريقك. أنت مطالب بعملية

كشف مباشر، قدر الامكان، للعالم الذى توجه اليه، أيها الإنسان، تساؤلاتك. لا تقل يومنا كفافنا. كل اجراءات التجريد والحذف والتعرية التي استخدمت معك انما استهدفت وضعك موضع التجربة. وقل دوما «ادخلنا فى تجربة، تلو تجربة».

تهكمك إذن يهدف الي قطع الروابط بكل العادات المتولدة عن الانجذاب إلى وجود ذلك العالم. يحرك من نفوذ الخارج الذى لازالت عينك تدوران فى محجريهما وترقبانه. أهذا ما يهدف إليه تهكمك؟ حقا، لم يبق لنا إلا الضحك.

لكنه ضحك يختلف عن الضحك الأحمر الصادر عن حناجر متوردي الخبود، المتخمين بالرفاهية والصحة، وعن الضحك الوردى الصادر عن نجوم الأناقة ورواد الصالونات المترفة، بل وعن الضحك الأصفر، حيث يضحك المرأ رغما عنه، متظاهراً بأنه لا يضحك.

ضحكنا نحن، الضحك الأسود، ضحك صادر من الاعماق. صاحبه يعرف أنه منسحق، ولكنه يضحك، يضحك من انسحاقه ذاته. أنه ضحك العجز والتحدى فى آن واحد. إنه ضحك الشجاعة، وليس ضحك الخنوع، ولا ضحك النفاق والغثاثة.

ضحكنا نحن يختلف أيضا عن ضحك الرواقيين، وعن ضحك البوذية أمام الفناء، كما يختلف عن تهكمية رابيليه وانتقادية فولتير

والضاحك الباكي فكرى. إن المرء منا يحتفظ فى الضحك الأسود
لنفسه بسر ضحكته. وهى ضحكة لا معقولة بحت، ضحكة من
يكتشف بداخله قوة مبرئة ومدمرة. قوة وصلت إلى حدود اليأس
والعدم، وأوشكت على اجتيازه وتجاوزه.

ارتعاشة يد

نسمة فى الأرجاء هائمة. جذوة لهب تتلوى. تهمد ثم تهب من جديد. جسم تائه، زائغ مراوغ، يلوح من وراء قطع الأثاث وزجاجات العطور والتحف، متلما من ثقب مشربية. علي زجاج النافذة يلهو النور بانعكاسات الاشكال، يغزل من الظلال شبكة أوهام.

لم يصدق. لا يريد أن يصدق أن ثمة عالما يختلف عن عالم الحواس، وأن الصدق لا يوجد فى المنطق وحده.

حلم بوجه أسود. استيقظ بالليل قبيل الفجر. ذهب إلى الحمام. وجد صاحب ذلك الوجه مسجى فى البانيو. أغلق الباب برعة، وتراجع غير مصدق. عاد يفتح الباب. لم يجد أحد.

فى ليلة أخرى، أحس بطعة فى جنبه. استيقظ. وجد من يقفز من الشباك، ويهرب. نظر إلى جنبه. لم يكن ثمة أثر لأية طعنة.

أول ما يفعله كل صباح، يشخص إلى الأسوار. يمسح الفراغ بعينه. يحاول أن يتجاوز بأنظاره الجدار.

لا يطول بصره إلا ما يطوله كل يوم، أجزاء معمارية ومنشآت،
كتلاً حجرية عليها نقوش، أعمدة، وتيجان، ومجموعة من جرائن
ضخم، قد تكون وقد لا تكون - أجزاء من منار هده ربما زلزال فى
قديم الزمان، وجسم سيدة بدون رأس، ترتدى رداء مطرزاً بعقد
بارزة، ويخيوط حائلة الألوان - قد تكون ملكة بطلمية، وقد تكون
مجرد محظية - وإلى جوارها ونش بحرى، تدلى منه فوق مكان
الرأس خطاف وسنان.

أريد الليلة، فى هذا الصمت الذى يغمر غرفتى، مثل بحر ساكن،
أن ألبس سترة غوص من نسج خيالى، وأغوص داخل نفسى.
أترك على الشيطان حياتى، وأنزل حيث الظلمة حافلة بالأسرار.
فى الكهوف أجوس. أتوق أن أعرف هل ماضى حقيقة أم كان
أضغاث أحلام؟ هل كان لأيام طفولتى وصبأى وجود؟ أم ترى تلك
الأيام، تلك الصبوات ولحظات السعادة والوفاق، لم تحدث بدورها قط
؟ أم أن كلشئ لم يكن .. وأبدأ لن يكون؟!

شفتا جمجمة ترشف النبيذ من كأس مكسور على ضوء شمعة
منطفئة، وتقضم الأسنان تفاحة حجرية، تعمل فى صمت بداخلها
نودة دؤوب.

السكون ستار أسود، لا يهتز. لا يعكره، سوى ساعة رملية، تبكى

دقاتها، وتطلب الغفران من زهرة ذابلة، قاسية القلب، حطت عليها
فراشة محنطة، لا تقوى على الفراق.

وذات مرة أحس بصفعة على وجهه ثم دفعة فى ظهره. استيقظ
فى الصباح، وأخبر من حوله. كشفوا الملابس عن ظهره، فوجدوا
آثار دماء من صفعة كف مرتسم فى موضع هناك.

يجب أن تعرف. قيمتك هنا بقدر كتمانك للصراخ . فاحتفظ بكل
جلدك، ومن يصبر حتى المنتهى يخلص. والمنتهى هنا ليس ببعيد، بل
هو أيضا قادم أكيد. تستطيع من أجل المقاومة أن تعصب رأسك
بعصبة مرصعة بالشوك والحسك. لحظة بعد لحظة ستكتسب المهارة.
وكم من الصناديد ذائعى الصيت بدأوا من هنا. هل تسمعن؟

اسمعك، يا نعيم، أسمعك.

وأنت ، اسمع منى :

لن يكون هنا شيطان يتقمصك، ولا ملاك يحرسك. سوف تكون
أنت، أنت فحسب، عدما متناميا . ليس من أنهار، هنا. اللهم الا
أنهار الرمل. لن يكون هنا سوى أنا وأنت. من أنا؟ صوت صارخ فى
البرية، يزلزل أسوار الصمت.

من السجن الكبير خرجت إلى سجن أكبر. لا حراس ولا سجان
هناك تمضى من حيز إلى حيز . هذه مسيرتك.

توصلنا إلى تركيب ما يقرب من ألفى قطعة. جهد كبير. ثلاثين عاماً ظلت ناقصة. جمعناها. عمل، دؤوب. تجاوزنا سومر. وأوغلنا بعيداً عن كتاب الموتى. ولكن هل فككنا الرموز؟ إن مررت لم تكن عشيقة - هل حقاً فككناها، هذه الرموز؟ - بل كانت .. ربما ابنة.. أو حفيدة للفرعون. وهذا أقرب إلى معانى الرموز.

عدت إذن تتجسم وتتضخم، وعلى حسابى أنا الذى أضحى على أن أقنع بأن انزوى أتضائل، ألقى بنفسى فى الظل، وأنمى. عبر مزيج متنافر من المعاناة والمسرات اليومية، تلوح من حواك وجوه أسقطت عنها الأقنعة. الحوار بين الشكل والخامة اندثر. أضحى الحوار رمزاً، عبر حوار بين أشكال وأشكال، دون الوصول إلى معنى.

الحياة ستظل هي الحقيقة الوحيدة، التى كان يجب أن يحيوها دون امكان فعل شيء آخر.

يوماً ما، سوف يخرجون من هذا الأسر؟ من هذا اليوم؟ يوماً ما سيعودون إلى المدن الخرافية؟

ربما... ولكن ذلك اليوم متى سيكون؟ وعندما سيخرجون كيف سيكون ذلك العالم الذى إليه يخرجون؟

فى ركن منزو، ومن ثقب رحت أطل. أرصد ما يحدث بالخارج،

ولا أمل فى شىء .

لا يستطيع أن ينساها .، يتسلل إليها بالليل. هنا الضباب بخور
فى كل الأرجاء منتشر، والطيور تفتح مناقيرها ولا تغرد .

طيفها العذرى، مع أول شعاع شمس ، سيختفى. والآن، فى ضوء
القمر، كل ليل، ترتدى ثوب الفرح. ويرقصان بعاطفة مشبوبة.. وفى
الحلم، على دقات الطبول، يعاندان القدر:

واذا لم نعترف بذلك الصوت، فما البديل؟

نحن التماثيل، نسال، وعلى شفاهنا بسمه لقاء الموت.

سال ابنه. هل يستطيع أهل الجنة أن يفعلوا شيئاً لأهل الجحيم،

إذا ما صرخ هؤلاء قائلين انقنونا من هذا العذاب المقيم؟

لم يجب ابنه. وما كان من عادة هذا الصموت أن يجيب. وحتى لو

أجاب فبماذا كان يجيب؟ بماذا يجيب؟

دعنى أنا عليك أجيب: ذات ليلة...

كلا، كلا،

ليس ثمة بداية يمكن الارتكان إليها. أعرف ذاكرتى ضعفت،
واضحت أفكارى مضطربة مختلفة، كثيرة التكرار غير متماسكة،
استرجع ماضياً قديماً كى أجد أرضاً راسخة أبنى عليها. أملاً
فجواتها ببعض التخيلات التى تتمثل لى حقائق، وأن لم تكن قطعية.

أكافح ضد الإهمال والنسيان كل لحظة.

دسست يدي في تجويف صدري. لم يبق لي سوى قصاصات من ورق أصفر ومسودات علاها الصدأ. وضعتها جانباً. الى أن غلبني ذات يوم «جوع إلى الكتابة» استبد بي، فجلست أكتب. كتبت صفحة تخيلت فيها بيتاً لم أسكنه، لكن متعة أن أصف بالكلمات هذا البيت، وأن أقوم بتأنيثه، وأبحث عن سكانه والمترددin عليه، ملأني سعادة بحياة قد أكون عشتها يوماً، وقد لا أكون.

في السكون، ندت من قطعة أثاث، أنة. في العتمة، نافذة تفتح. بصيص نور يتحسس الأرجاء، ويتلصص. في البیداء، ساعة حائط تدق. تعلن زمناً. ومن الشفتين المطبقتين تمتمة «بحثنا عن سعادة وفشلنا» ثم صفير قطار، في برد الصباح، يقترب. يقف عند محطة خاوية، وينتظر.

تعبت. وددت أن أستريح. أجلس على كرسي. أفتح نافذتي. أنظر إلى البحر، أو أطل على حديقة. أتنفس هواء نقياً، يملأ صدري. وددت أن أستريح، حتى من ذكرياتي التي أضحت بدورها عبئاً ثقيلاً.

كنت تقول «وددت زن أستريح».

جاعى في المنام أمس وقال: أنت تصوب أنظارك في اتجاه غير

صحيح، وأنت تعرف فى أى اتجاه يجب أن تصوب أنظارك. ألا تعرف؟

ثم أردف يقول: أشعر أنك تستفزنى بتصنعك الجهل بأمور مثل هذه. على الأقل لا تسأل. لا إجابة الآن على أية أسئلة. الأسئلة ما عاد لها إجابة . حيثما نحن الآن لا إجابة.

العربة الحنطور تقف هناك منزوية. عجلتها الخلفيتان مالتا. ما عادتا تقويان علي حمل الهيكل الخشبي المقهور، ولا الغطاء الجلدى فوقه. المصباحان علي الجانبين يضيئان بضوء شاحب، شاحب، شاحب. تتراقص الذبالتان المتعبتان على أنغام تخت يلفظ أنفاسه. المقعد الجلدى خال، ممزق، والسائق ضامر العود كأنه مومياء، ينظر الى بعيد.. فى الظلمة.. عله يرى عند مفرق الطريق عشيقة وعشيق يريدان نزهة على النيل، أو ربما فى طرقات معتمة، عله يرى سكيراً عرييداً يلقي بنفسى على المقعد لا يفيق، أو عله يرى شبحاً من الماضى السحيق، بستره سوداء وطربوش مائل على الرأس زنيق،

يطلب منه أن يحمله إلى روض الفرج. وهل يذكر أحد روض الفرج؟ نفخت فينا الريح. شتت منا الأشلاء. بُعثرنا فى الأرجاء. انفصلنا عن نواتنا. لم يعد لنا أسماء. مجرد نكرات نحن، كلمات، فى كثير من الأحيان لم تكتما حروفها، يرصها علي الصفحات مرتعش اليد،

ولا مهرب لنا من المحاة.

من قال سَيْفُكَ إِسَارُنَا، يوما؟ سقطنا من السطور خارج السُّفْرِ.
ما عدنا سوى أحرف متآكلة. نفايا كلمات نحن، مواصلة غامضة
لعرشة خوف تطمسنا، ولكن هل نستسلم للصمت؟ وهل نقدر علي
الصمت؟ إننا نتقافز؟ ونعود على السطور نُرَصُّ في شبه لغة ما عاد
لها أصل. مجرد خريشات نحن، على سطح لا نملك منه ولا حتى
الحيز الذي تشغله حروفنا المتآكلة.

ومع ذلك، بابتسامة رائعة، في وقفة تعبر، رغم كل شيء، عن
قوتي.. مجرد أكاذيب.. أسير في طريق المراكب المقدسة. ألبس التاج
المزدوج، وأغطي أجزاء من جسمي برقائق من ذهب. أزيلوا
الكيمائيات والأتربة والردم القديم من طريقي. لن تعثروا لى على
مثيل. لست تمثالاً بين التماثيل. بل أنا...

كوب الشاي على المنضدة، والليمونة اعتصرت . قالت مغنية الليل
في لاصباح «أمسية ماجنة مع تنين جهنم». اللون أصفر علي أصفر،
والجسد لف في قماش أبيض.

اللقى مارس ١٩٩٤ - سبتمبر ١٩٩٧

• صدر للمؤلف

- المرأة والمصباح - رواية - الأنجلو المصرية
- قضية الشاويش صقر - قصص - الأنجلو المصرية
- لحظة لقاء - قصص - الهيئة العامة للكتاب
- حكايات الحب اليومية - قصص - روايات الهلال
- الاغراء الأخير - رواية - دار المعارف
- ليل آخر - رواية - هيئة الكتاب
- نساء فى المحاكم - قصص ولوحات - دار المعارف
- فتاة على حصان أحمر - قصص - الأنجلو المصرية
- الملاك - رواية - روايات الهلال
- نورسان أبيضاً - قصص - مختارات فصول
- زمن البراءة - أقاصيص - كتاب الجمال
- قبلة الريح - رواية - مختارات فصول
- كن بشوشاً - قصص - كتاب الجمال
- الأيام السعيدة - قصص - مختارات فصول

• عن المؤلف :

محمد الراوى - حوارات الحرية والعزلة - النهضة العربية

الفهرس

٧	مجرد احساس
١٥	متاعب ليلة سادها الظلام
١٩	وقفة الطل علي ورقة شجر
٢٥	طلبت ان ينقذك
٣٣	عناق الصخر
٤١	تساءلنا كثيراً
٤٧	حجارة رمادية بنية
٥٣	ارتعاشة يد

الأمل للطباعة والنشر



الدورة التاسعة اقرأ لطفلك

ألبسوني قناع ثور تارة، وتارة أخرى فروة أسد، وزعموا أن الأسود
والثيران فيها من صفاتي الفحولة والشجاعة، ولهذا فهم يعتزون بلبس
قرونها وجلودها تبركاً بى وتيمناً، لعل أحلّ فيهم، كما حللت بالثور
والأسد، وإن كنت أصدقكم القول أفكر فى التمساح كلما تحدثوا عنى
وفى الأفعى ذات الصليل. كما أرثى لذلك الذى أنصق بكتفيه جثا
نسر، واعتقد المسكين أنه يستطيع أن يعلو كثيراً كثيراً مثلى، فلما
الشمس، وسأطت عليه أشعتها الدافئة ذاب الصمغ فتردى إلى الأرض
وهو جزاء من يتناول علينا، ويتجاوز الحدود عامداً.